غزة ٢٠١٤... انتصار الصمود

معين الطاهر*

غزة: قراءة أولية للحرب

هذه المقالة بمثابة قراءة أولية لحرب لم تكد تضع أوزارها، ولم تكشف جميع أسرارها بعد. فالمقاومة لم ترو روايتها، وإسرائيل ما زالت تحت الرقابة العسكرية الصارمة. وفي انتظار لجان الفحص والتحقيق التي ستتشكل حتماً، وروايات الجنود التي ستتسرب، وشهادات المقاومين التي ستأتي، كانت هذه القراءة الأولية لحرب دامت ٥١ يوماً.

I ـ هدف الحرب

يمكن الافتراض أن إسرائيل دخلت معركة غزة من دون تحديد هدف واضح للحرب، وكذلك من دون تحديد استراتيجيا واضحة للخروج منها، أو الأهداف التي تبغي تحقيقها. وقد انعكس هذا الأمر على الخطط والتكتيكات العسكرية في مختلف مراحل المعركة، وأدى في بدايتها إلى عزل نائب وزير الدفاع داني داتون بسبب انتقاداته كيفية إدارتها، كما أدى في نهايتها إلى جدل داخلي كبير، وإحباط في صفوف الجمهور والطبقة السياسية، وشعور بأن الجولة انتهت من دون تحقيق أي إنجاز مهم.

بدأت الحرب بذريعة معاقبة المقاومة على خطف المستوطنين الثلاثة في الضفة الغربية، والرد على سقوط بعض القذائف على غلاف غزة، ضمن اعتقاد راسخ بأن على إسرائيل أن تستغل التطورات الأخيرة في المنطقة وحالة العزلة والحصار التي تعيشها المقاومة عامة، و"حماس" خاصة، من أجل إحداث تغيير جذري في وضع القطاع. وترافقت الحرب مع تحذيرات من وزير الدفاع ورئيس الأركان الإسرائيليين من مغبة الخضوع لضغوط اليمين الإسرائيلي. وتم تبنّي خطة تقوم على التصعيد المتدرج، وعلى أن يكون الهدف المعلن للعملية هو توجيه ضربة قاسية إلى المقاومة، وتحقيق الردع، ومنع المقاومة من إعادة بناء قدراتها العسكرية، وذلك انطلاقاً من الفرضية القائلة إنه

* قائد كتيبة الجرمق سابقاً التابعة لقوات العاصفة.

في ضوء الحصار وتدمير الأنفاق، سيكون من الصعب ترميم ما تضرر.

من هذا المنطلق، شملت الخطة: ضرب قواعد الصواريخ وأماكن تخزينها وتصنيعها؛ تسديد ضربة إلى قيادات المقاومة وأعضائها وبنيتها؛[1] إعادة الهدوء إلى الجنوب؛ إلحاق أضرار بالبنى التحتية للمقاومة؛ تفويض المجتمع الدولي نزع سلاحها.[2] لكن خلال الحرب نشأت أهداف جديده مثل: استعادة جثث الجنود؛[3] منع المقاومة من تحقيق إنجاز؛ السعي لتعاون إقليمي مع دول الجوار؛ تدمير الأنفاق الهجومية. وبعد ذلك تراجعت قائمة الأهداف بعد فشل إسرائيل في وقف القصف الصاروخي الذي تطلقه المقاومة، إلى ما أُطلق عليه "كي الوعي"، ثم إلى استخدام فائض القوة الهائل والتدمير الشامل، لتحقيق الهدف الأخير، وهو "هدوء في مقابل هدوء"، وسط التهديد بإعادة احتلال القطاع،[4] أو شن حرب استنزاف تتسبب بإنهاء سلطة "حماس" وتسليم القطاع إلى السلطة الفلسطينية عبر تحالف دولي وإقليمي،[5] بعد أن كان ضرب حكومة الوفاق الوطني من الأهداف الأولى المعروفة للحرب.

وشكّل هذا كله إخفاقاً في عملية الدخول إلى الحرب وتحديد أهدافها الاستراتيجية، وإخفاقاً في معرفة طريقة الخروج منها. وفي المقابل أصرت المقاومة على أهدافها، ونجحت في صوغ ورقة فلسطينية موحدة تتضمن مطالبها رفع الحصار، وإعادة بناء الميناء والمطار، وتوسيع المدى البحري للصيد، ورفض أي حديث بشأن سلاحها، أو ربط رفع الحصار بالهدوء الأمني.

II ـ ميزان القوى

من العبث الحديث عن ميزان قوى جدي بين الطرفين، إذ بينما قامت إسرائيل بتجنيد ٨٢,٠٠٠ من قوات الاحتياط الذين استلموا مواقع الوحدات المقاتلة على بعض الجبهات، كي تتمكن قوات النخبة من "غولاني" و"غفعاتي" و"إيغوز" والمظليين من القيام بالعمليات الرئيسية، فضلاً عن وحدات الدروع والمدفعية وسلاح الجو، كانت قوات المقاومة تُقدّر بنحو ٢٠,٠٠٠ مسلحين بأسلحة خفيفة، وببعض الأسلحة المضادة للدبابات مثل الـ "آر. بي. جي. ٧"، والـ "آر. بي. جي. ٢٩"، وصواريخ الكورنيت الروسية الصنع، وبعض مدافع الهاون، ونحو ١٠,٠٠٠ صاروخ أغلبيتها من تصنيع محلي، وبعضها ذو منشأ روسي وكوري وإيراني وسوري. وممّا لا شك فيه أن المقاومة طورت قدراتها التصنيعية، كما أنها استفادت من انهيار النظام الليبي في تهريب كميات كبيرة من مخلفات الجيش الليبي إلى قطاع غزة عبر مصر، ونظمت دورات تدريبية لكوادرها في سورية ولبنان وإيران وغزة.

أمّا من حيث قوة النيران، فقد أطلقت المدفعية الإسرائيلية ٣٦,٧١٨ قذيفة، و١٤,٥٠٠ قذيفة دبابة، و١٥,٧٣٦ قذيفة من البوارج، ونفّذت طائرات F١٦ وطائرات الاستطلاع ٨٢١٠ غارات جوية، وبلغ عدد القذائف والصواريخ بعياراتها المتعددة التي كانت تتساقط على قطاع غزة ١٢٠ قذيفة يومياً تقريباً،[6] أو ٦١٠٠ قذيفة طوال أيام المواجهة. وبلغ نصيب كل مواطن غزي ٤ رصاصات من الأسلحة الرشاشة التي استُخدمت خلال أيام الهجوم البري المحدودة. ومن هنا، فإن أي مقارنة رقمية للسلاح والمعدات وقوة النار، أو لعدد القوات المقاتلة من كلا الطرفين، تصبح نوعاً من العبث. غير أن الجانب الفلسطيني عوّض هذا

الفارق الكبيرة بالصمود والإصرار وإدامة القتال وروح المبادرة.

III ـ الاستخبارات

كان فشل جهازَي الأمن الداخلي "الشاباك" والاستخبارات العسكرية "أمان" واضحاً خلال هذه الحرب، إذ كانت التقديرات الاستخباراتية متفائلة بشأن إمكان سحق المقاومة واستعدادها للقبول بهدنة تضع إسرائيل بنودها. كما أن المعلومات الاستخباراتية عن قواعد إطلاق الصواريخ وأماكن تخزينها وعددها والمدى الذي تصل إليه، كانت جزئية. وتباينت التقديرات أيضاً إزاء عدد الأنفاق وأماكنها ومخارجها ومدى الخطر الذي تمثله، ولم يتم التنبه إلى هذا الأمر إلاّ في عاشر أيام الحرب، وبعد إحدى عمليات التسلل خلف خطوط الجيش الإسرائيلي. وتمثل الفشل الاستخباراتي أيضاً في عدم القدرة على اغتيال قادة الصف الأول عند بداية الهجوم، كما أنه لم يحقق سوى نجاح جزئي بعد انهيار الهدنة.

وفي المحصلة، يمكن القول إن المؤسسة الأمنية الإسرائيلية فشلت في الكشف عن قدرات المقاومة القتالية وواقعها التنظيمي والخلفية النفسية والمعنوية لمقاتليها وقادتها، وهي أمور لا يمكن التوصل إليها عبر الوسائل الاستخباراتية التقليدية.

IV ـ الصواريخ

على مدى ٥١ يوماً بلغ عدد الصواريخ التي أطلقتها المقاومة على إسرائيل ٤٠٠٠ صاروخ تقريباً. وتشير تقديرات العدو إلى أنه بقي لدى المقاومة عند وقف إطلاق النار ٣٠٠٠ صاروخ تقريباً، منها ٢٠٠٠ يصل مداها إلى ٢٠ كيلومتراً، وبضع عشرات منها تستطيع الوصول إلى السهل الساحلي والقدس.[٧]

ويمكن تقسيم المخزون الصاروخي للمقاومة من حيث المدى إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ صواريخ قصيرة المدى يتراوح مداها بين ١٠ و٤٠ كيلومتراً، وتمثل المخزون الصاروخي الأكبر، مثل: "قسام" المصنع محلياً، و"غراد" الروسي، و١٠٧ الكوري، وأنواع أُخرى من تصنيع فصائل المقاومة، وهي مخصصة لضرب ما يُعرف بـ "غلاف غزة".

٢ ـ صواريخ متوسطة المدى، مثل "سجيل ٥٥" محلي الصنع ومداه ٥٥ كيلومتراً، وخُصص لقصف منطقة بئر السبع والنقب.

٣ ـ الصواريخ البعيدة المدى، مثل "فجر٥"، و"M٧٥" (مقادمة)، و"براق ٧٠"، و"براق ١٠٠"، و"R١٦٠" (رنتيسي) الذي يبلغ مداه ١٦٠ كيلومتراً، و"J٨٠" (جعبري) الذي زُوّد بأجهزة توجيه لتضليل القبة الصاروخية، و"M٣٠٢" وهو صاروخ سوري يتراوح مداه ما بين ٩٠ و٢٠٠ كيلومتر بحسب الرأس المتفجر الذي قد يصل إلى ١٤٥ كيلوغراماً، وسبق أن اعترض الإسرائيليون باخرة تحمل شحنة منه قبل ٤ أعوام.[٨]

وحقق استمرار القصف الصاروخي مفاجآت عديدة على المستوى التكتيكي، فسلاح الجو الإسرائيلي لم يتمكن من تدمير مخزون الصواريخ ومنصات إطلاقها بعدما كان قائد هذا السلاح قد صرح أنه يحتاج إلى ٨ ساعات فقط لتدمير المخزون الصاروخي في غزة، وإلى ٣ أيام لتدمير مخزون "حزب الله" في لبنان. وأظهر بعض أشرطة الفيديو التي بُثت عن

كيفية إطلاق الصواريخ، وجود قواعد هيدرولية مخبأة تحت الأرض ومموهة جيداً، وكذلك توجيه الصواريخ وإطلاقها عن بعد، وبالقرب من كل منها يوجد مخبأ صغير يستوعب ٢٠ صاروخاً.[٩]

وتتمثل المعجزة التي حققتها المقاومة في أن وتيرة إطلاق الصواريخ لم تنخفض حتى اللحظة الأخيرة، وإنما استمرت، وبالتركيز ذاته، على المدن والمستعمرات، بما فيها تل أبيب والقدس وحيفا وديمونا. وفي الأيام الأخيرة جرت محاولة لاستهداف منصات الغاز في عرض البحر، فضلاً عن نجاح الصواريخ في إرباك حركة النقل الجوي وتسببها بإغلاق مطار بن ـ غوريون لأيام، وإجبار ٥ ملايين إسرائيلي على البقاء في الملاجىء أو قربها، وحظر التجمعات البشرية في أرجاء الكيان.

ولعل المعجزة تلك تكمن في استمرار القصف في ظل سيطرة جوية إسرائيلية كاملة على مدى ساعات اليوم، وفي رقعة جغرافية ضيقة مثل قطاع غزة. وقد حقق القصف الصاروخي عدة مفاجآت، من حيث المدى والدقة، والمحافظة على الوتيرة العددية والتوزيع، والتدرب على تكتيكات لمواجهة منظومة القبة الحديدية، والمحافظة على سرية مستودعاته ومنصات الإطلاق، بل استخدام الصواريخ كسلاح معنوي حين تم تحديد ساعات قصف تل أبيب والقدس بشكل مسبق.

وادعى الجيش الإسرائيلي أنه دمر ثلث المخزون من الصواريخ وهي على الأرض، أي ٣٠٠٠ صاروخ، وأن القبة الحديدية أسقطت ١٧٪ من مجموع الصواريخ التي أطلقت، وهذه النسبة على ضآلتها لا تُعتبر فشلاً للمنظومة التي ما زالت بحاجة إلى التطوير، لكن السبب في ذلك يعود إلى نقص في عدد وجبات المنظومة، وإلى انتشار أغلبية منصاتها في مركز البلد بالقرب من المدن الكبرى والمطار، ومع ذلك سقط على هذه المدن العديد من الصواريخ، وساهم الانفجار الذاتي لصواريخ القبة الحديدية في مضاعفة عدد الانفجارات.

كما زعم العدو أن ٨٠٪ من الصواريخ سقطت في أماكن فارغة، وأن ٣٪ فقط سقطت في أماكن مبنية وأدت إلى مقتل ٤ أشخاص وإصابة ألف بجروح وحالات هلع. لكن المستغرب أنه، وبعد هذه الإحصاءات كلها والتكتم على حجم الخسائر، عاد العدو واعترف بأن ٧١ شخصاً جُرحوا في ٨/٢٦ وحده. وربما جاء اعترافه هذا لتبرير قصفه الممنهج للأبراج السكنية.

V ـ القيادة والسيطرة

على الرغم من القصف المجنون والأعمى، والدمار الهائل في المنازل وفي البنية التحتية في قطاع غزة، وتهجير نصف مليون مواطن تقريباً من بيوتهم، وآلاف الجرحى الذين تكدسوا في المستشفيات مع ما يعنيه ذلك من عبء إنساني كبير، فإن منظومة القيادة والسيطرة في المقاومة تميزت بشكل كبير، وظهر ذلك من خلال تمكنها من الحفاظ على زمام المبادرة، والقيام، في أوج المعارك، بعمليات هجومية وخلف خطوط العدو، في البر وعبر الأنفاق وعبر البحر في اتجاه القاعدة البحرية الإسرائيلية في زيكيم. وكان واضحاً حجم الاستعداد المسبق للمعركة دفاعاً وهجوماً، إذ تواصلت عمليات القصف والعمليات الهجومية المخطط

لها مسبقاً ضمن توقيتات دقيقة.

وفي المقابل، بدا العدو مرتبكاً في تقدمه البري، ومن دون خطة مركزية مسبقة، معطياً صلاحيات أوسع للقادة في الميدان. وبدلاً من تحقيق الأهداف المقررة، انشغل بمعالجة المهمات الطارئة ومنع خطف الجنود عبر تطبيق "بروتوكول هنيبعل" السرّي، الذي يخوّل الجيش الإسرائيلي استخدام قوة نارية هائلة، أو أي إجراء آخر، لمنع أسر أحد الجنود، حتى لو أدى ذلك إلى مقتل الجندي. وفي مرحلة أُخرى بدا كأن القيادة الإسرائيلية فقدت قدرتها على اتخاذ القرار بالتقدم البري، إزاء الاستمرار في استخدام مفرط ومجنون للقوة.

VI ـ سلاح الجو

كان لسلاح الجو الإسرائيلي القوة النارية الأكبر والأكثر دقة في هذه المعركة، وفي المقابل امتلكت المقاومة وسائل محدودة للغاية، أو تكاد تكون معدومة في مواجهته. وتمكنت المقاومة من إطلاق بضعة صواريخ "سام ٧" المحمول على الكتف تجاه الطائرات الصهيونية، الأمر الذي اضطرها إلى إطلاق البالونات الحرارية. وفي مناسبة أُخرى، أعلنت المقاومة أنها أصابت طائرة من طراز F١٦ وطائرة استطلاع من دون طيار، لكن لم يتوفر أي تأكيد لذلك من الجانب الإسرائيلي، غير أن ظهور "سام ٧" أجبر العدو على عدم الزج بطائراته المروحية الهجومية إلاّ في حالات محددة.

وتدخّل سلاح الجو الإسرائيلي بفاعلية شديدة في الحرب البرية، ففي ٢٠ تموز / يوليو عندما واجه لواء "غولاني" مقاومة شديدة في حي الشجاعية، هاجم سلاح الجو ١٢٦ هدفاً خلال ٥٠ دقيقة بقنابل زنة الواحدة منها طناً واحداً،[١٠] علماً بأن سلاح الجو الإسرائيلي نفّذ ٨٢١٠ غارات حتى نهاية الحرب، منها ٤٧٦٢ غارة حتى ٥ آب / أغسطس.[١١]

إن معضلة مواجهة سلاح الجو وقدرته النارية الفائقة وقذائفه الذكية المزودة بنظام متابعة Global Positioning System/GPS ستبقى قائمة في المواجهات المقبلة، وسيتعذر على المقاومة بناء أنظمة دفاع جوي ثابتة وقادرة على مواجهته، وسيبقى الحل الأمثل هو استخدام الوسائل التقليدية في التمويه والاتصال للحيلولة، ما أمكن، دون انكشاف مواقع المقاومة ومقارها، ومحاولة الحصول على صواريخ مضادة للطائرات محمولة على الكتف من جيل أكثر تطوراً من "سام ٧". كما أنه ربما يكون من الأجدى في مرحلة لاحقة وضمن تطوير المنظومة الصاروخية، ضرب مطارات العدو وقواعده العسكرية لشل قدراته الجوية أو إعاقتها على الأرض، علماً بأن إخفاء المواقع والنزول تحت الأرض ونقص المعلومات الاستخباراتية والاشتباك القريب والخوف من خوض الحرب البرية، جعلت من السيطرة الجوية قوة نارية تُستخدم ضد الأهداف المدنية.

ويجب الإشارة أيضاً إلى نجاح المقاومة في تصنيع ثلاثة نماذج لطائرات من دون طيار أطلقت عليها اسم "أبابيل"، وهي ذات مهمات استطلاعية، وكذلك هجومية عبر إلقائها شحنة متفجرات تحملها، أو عبر الانقضاض مباشرة على الهدف. ونفذت المقاومة خلال الحرب ٣ طلعات، وفقدت طائرتين تم إسقاطهما بصواريخ باتريوت المضادة للصواريخ،[١٢] وهذا جهد يبدو أنه ما زال في بداياته.

VII ـ الأنفاق والحرب البرية

دمر الجيش المصري ١٩٦٠ نفقاً تربط ما بين قطاع غزة ومصر، منها ٣٠ نفقاً دُمّرت خلال الحرب الأخيرة. وعلى الرغم من الضرر الشديد الذي ألحقه ذلك بقدرة القطاع على إدخال الحاجات المدنية وغير المدنية، فإن الخبرات التي تراكمت من خلال تقنيات حفر الأنفاق المدنية وفّرت للمقاومة مئات الكوادر المجربة التي تحولت إلى بناء الأنفاق العسكرية والمستودعات ومقار القيادة ومنصات الصواريخ. ولا تزال الأنفاق في غزة أحد أسرار المقاومة الكبرى.

وادعى الجيش الإسرائيلي أنه دمّر ٣٢ نفقاً هجومياً، تمتد أو تتجه إلى داخل السياج الحدودي، وبعضها يسمح بخروج أكثر من سرية مقاتلين خلف الخطوط، والقيام بهجوم واسع، غير أن هذا ليس أكثر من رأس جبل الجليد، فأحد المكونات الأساسية لقوة المقاومة، والذي يمكن أن يشكل مقابلاً للتفوق الإسرائيلي في مجال تكنولوجيا الاستخبارات والقدرة النارية الهائلة، يكمن في تلك المنظومة الكاملة التي بنتها تحت الأرض، والتي تشمل قدرات دفاعية وهجومية واسعة النطاق.[١٣]

وبينما ادعى الجيش الإسرائيلي أنه كان يعلم بوجود الأنفاق وأنه درب بعض وحداته على مواجهتها، فإن الوقائع كشفت أنه لم يبدأ العمل ضد الأنفاق إلاّ بعد أن تسلل ١٣ مقاتلاً خلف الخطوط قرب مستعمرة صوفيا، واضطراره إلى شن عملية برية في ١٧ / ٧، وبعمق ٢ ـ ٣ كيلومترات فقط، في محاولة لمنع تكرار تجربة عملية صوفيا.[١٤]

ولم تكن الحرب البرية التي وقعت في الأسبوع الثاني من القتال نزهة سهلة، ففي كل متر حاولت وحدات النخبة في الجيش الإسرائيلي التقدم فيه، واجهت الألغام والعبوات البرميلية من طراز كليمور، والتي سبق أن استخدمها "حزب الله" في سنة ٢٠٠٦، وكذلك الأشراك الخداعية وصواريخ الكورنيت ونيران القناصة وقذائف الآر. بي. جي. والمنازل التي أخلاها المدنيون كي تفخخها المقاومة.

على أن الإنجاز الأبرز كان في عشرات أو مئات المقاتلين الذين يخرجون من فتحات الأنفاق المموهة، من داخل المباني والحدائق والشوارع والأراضي الزراعية. ولم يكن هدف الأنفاق التسلل خلف خطوط العدو فقط، بقدر ما كان جزءاً من خطة دفاعية كاملة فاجأت العدو ومنحت المقاومين حرية الحركة بعيداً عن عيون طائرات الاستطلاع ووسائل المراقبة الإلكترونية، وهو قتال كانت الغلبة فيه لمَن هم تحت الأرض على الذين فوقها ويحلقون في سمائها.

وذكرت القناة العاشرة في التلفاز الإسرائيلي، أنه جرى خلال هذا القتال ثلاث محاولات لأسر جنود انتهت، بحسب المصادر الإسرائيلية، بقتل الجنود خلال القصف الجوي والمدفعي الذي أعقب العمليات وفق "بروتوكول هنبيعل". وتقول إسرائيل إن "حماس" تحتفظ بجثتَي جنديين، بينما لم تقدّم "حماس" أي معلومات نهائية عن أسرى العدو، كورقة ضغط في المفاوضات المقبلة بشأن الأسرى، وإنما اكتفت بإعلان أسماء مَن أسرتهم.

وعملاً بـ "بروتوكول هنيبعل"، فإن الجيش الإسرائيلي يعتبر أن الجندي القتيل خير من الجندي الأسير. ويفوّض البروتوكول القوة العسكرية المنتشرة الرد الفوري والاستعانة

بجميع الوسائل القتالية، والإسناد الجوي والمدفعي، مرتكزاً على فرضية أن كل تأخير في الرد سيفضي إلى أمر واقع، وإلى عدم القدرة على إحباط عملية الأسر. وأدى تطبيق هذا البروتوكول إلى إيقاع خسائر فادحة في صفوف المدنيين الفلسطينيين، إذ استشهد ١٥٠ فلسطينياً تقريباً في منطقة رفح خلال ساعات في أثناء محاولة إحباط خطف الضابط هدار غولدن من لواء غفعاتي، وذلك عندما عمد الجيش الإسرائيلي وسلاحا الجو والمدفعية إلى قصف جميع الطرق والمباني وحتى المستشفيات في المنطقة، كما أن بطاريات المدفعية أطلقت ١٠٠٠ قذيفة خلال ٣ ساعات، وهوجم ٤٠ هدفاً من الجو،[١٥] الأمر الذي حوّل المنطقة بأسرها إلى كومة من الركام.

واعتمدت المقاومة في هذه العمليات أسلوب قيام مجموعتين بالاشتباك مع العدو: الأولى تلتحم معه وتضعه تحت قوة نار كبيرة، أو تقوم بتفجير انتحاري، بينما تحاول الثانية أسر أحد الجنود وسحبه في اتجاه أحد الأنفاق. وجرى تعميم مفهوم جديد للاشتباك المباشر مع الوحدات المتقدمة، وهو الاشتباك من مسافة صفر، حيث تنعدم المسافات بين الطرفين، ويتفاجأ العدو بظهور المقاومين أمامه أو خلفه، فيفقد القدرة على الاستعانة بأسلحة الإسناد من الجو أو البر، خاسراً بذلك ميزة قوة النار الهائلة التي يتمتع بها.

وفي محاولة الأسر الأولى كانت الخسائر فادحة في صفوف الجنود الإسرائيليين، إذ أطلقت مدفعية جيش الاحتلال ٦٠٠ قذيفة في أقل من ساعة ـ فيما يُعرف بنار الإنقاذ، أو نار تخليص الأرواح.[١٦] كما هاجمت الطائرات ١٢٠ هدفاً في المنطقة خلال ٥٠ دقيقة، واستغرق سحب الناقلة المحترقة، المحملة بأشلاء الجنود، من أرض المعركة عدة ساعات، وخلال عملية السحب انقلبت وتناثر بعض الأشلاء على الأرض، ولم تفطن قيادة الجيش إلى اختفاء أحد جنودها إلاّ بعد إعلان "حماس" أنها أسرته، على الرغم من وجود نظام جديد معتمد في الوحدات القتالية الإسرائيلية يربط كل الجنود بنظام تحديد المواقع عبر إسوارة في القدم يستطيع نائب قائد السرية بواسطتها متابعة تحركات الجنود من خلال جهاز الحاسوب الخاص به، بل إن المندوب الإسرائيلي في الأمم المتحدة نفى حدوث عملية الأسر. وبرر الجيش هذا الإرباك بأن الجنود كانوا أشلاء، وأنه يلزمه وقت لإجراء فحص الـ DNA لتحديد هوياتهم.

وازداد اعتماد الجيش الإسرائيلي، في الحرب الأخيرة، على التكنولوجيا الحديثة وعلى قوة النار الهائلة التي يمتلكها، لكن، وكما هي الحال في حرب تموز / يوليو ٢٠٠٦ في لبنان، فإن الدبابة والطائرة والصاروخ لا تحتل أرضاً، ولا تنهي مهمة أو حرباً، فعلى الأرض يحتاج الجيش إلى جندي المشاة الذي عليه أن يغادر مدرعته كي يقوم بعمليات البحث والتطهير والاشتباك القريب.

ومنذ حرب ٢٠٠٦ في لبنان والانتقادات تتوالى على الجيش الإسرائيلي بسبب تراجع المستوى القتالي لديه، والتركيز على استخدام التقنيات العالية التي تجعل القائد يدير المعركة وهو جالس خلف جهاز الحاسوب بعيداً عن جنوده في ميدان المعركة. كما اهتم الجيش بزيادة قوة النار على حساب تدريب وإعداد وحدات المشاة. ويرى بعض المحللين الإسرائيليين أن وحدات المشاة أرهقتها الانتفاضتان الأولى والثانية عندما تحول الجيش إلى قوة شرطة تطارد الشبان في الشوارع. وعلى الرغم من التوصيات التي أعقبت المواجهات السابقة إزاء

دور ألوية المشاة، فإن شيئاً منها لم يتم العمل به، وبالتالي عجز الجيش الإسرائيلي عن حل هذه الثغرة الخطرة في صفوفه، بل إن ألوية المشاة وصلت إلى الجبهة منهكة بعد عمليات المطاردة والتفتيش التي قامت بها في الضفة الغربية في إثر عملية خطف المستوطنين. وفي الخلاصة فإن الجيش الإسرائيلي لم ينجح في التوفيق بين التطورات التقنية العالية وقوة النار الهائلة والاتصالات الحديثة وبين علم الحرب فيما يتعلق بالقوات البرية. إن الإهمال في هذا الجانب، ومن دون شك، سيخضع مجدداً للفحص والتحقيق في المستقبل القريب.[١٧]

ومرة أُخرى، أثبت الجهد الطويل الذي بذلته المقاومة في الإعداد للدفاع وبأعلى درجات السرية، تفوّق الدفاع على الهجوم، ونجاح المقاومة في التصدي للتوغل المحدود. وحسبنا هنا أن نشير إلى نقطتين:

أولاً، انسحاب القوات الإسرائيلية إلى خلف الحدود فور دخول الهدنة حيز التنفيذ تاركة وراءها بعض معداتها المدمرة، وهي المرة الأولى في الصراع العربي ـ الإسرائيلي التي تنسحب فيها القوات الإسرائيلية فوراً ومن دون قيد أو شرط من الأراضي التي احتلتها، على عكس عادتها في استغلال ساعات ما قبل الهدنة لاكتساب أراضٍ جديدة، ثم الدخول في مفاوضات طويلة بشأنها.

ثانياً، تردد قيادة الجيش الإسرائيلي في الدخول إلى قطاع غزة بعد انهيار الهدنة، والذي بدلاً من ذلك لجأ إلى استخدام سياسة فائض القوة من أجل ردع المقاومة، عبر توجيه ضربات قوية إلى البنية التحتية.[١٨] وقدّرت قيادة الجيش الإسرائيلي أن دخول القطاع والقضاء على المقاومة، سيكونان عملية مكلفة وطويلة، وقد تستغرقان من ٦ أشهر إلى عام.[١٩]

VIII ـ خسائر الحرب

أحصت مصادر وزارة الصحة الفلسطينية و"المرصد الأورومتوسطي لحقوق الإنسان" سقوط ٢١٧٤ شهيداً، بينهم ١٧٤٣ مدنياً (أي بنسبة ٨٣٪)، و٣٤٠ مقاوماً (بنسبة ١٧٪)، بينما بلغ عدد الجرحى ١٠,٨٧٠ شخصاً. ودمرت قوات الاحتلال ١٧,١٣٢ منزلاً، وخمسة أبراج سكنية، كما تضرر ٣٩,٥٠٠ منزل آخر. وتم تدمير محطات الكهرباء والمياه والصرف الصحي والمصانع وعدد كبير من المساجد.[٢٠]

الخسائر في الجانب الإسرائيلي بلغت ٧٢ قتيلاً منهم ٦٦ جندياً، بينما أصيب ٧٢٠ جندياً بجروح. وهؤلاء بأغلبيتهم سقطوا خلال عملية التوغل البري المحدود، الأمر الذي يشير إلى عنف القتال الذي دار في هذا الشريط الحدودي. لكن مراجعة متفحصة للرتب العسكرية لقتلى الجيش الإسرائيلي تشير إلى وجود خلل ما، إذ اعترف الجيش بمقتل ضابط برتبة مقدم، و٣ برتبة رائد، و٥ برتبة نقيب، و٦ برتبة ملازم . أي ١٥ ضابطاً و٤٧ ضابط صف و٣ جنود فقط!!

IX ـ ملاحظات أُخرى

١ ـ شكّل العبء الإنساني عامل ضغط كبيراً على المقاومة، إذ إن نحو نصف مليون هُجّروا

من منازلهم، كما حدث نقص فادح في الحاجات الطبية، وتم تدمير البنية التحتية بشكل شامل. ولعل ذلك ما قصده الإسرائيليون بعملية "كي الوعي" التي تفترض أن على قادة المقاومة أن يحسبوا خطواتهم المقبلة بدقة، عندما يرون آثار التدمير الشامل قبل الإقدام على أي خطوة تصعيدية. ومعالجة هذا الموضوع تتطلب الحفاظ على موقف فلسطيني موحد، وعلى مجموعة من الخطوات السياسية والجماهيرية التي تقنع الجمهور العريض بأن تضحياته لم تكن عبثاً. وربما يمكن تحقيق نموذج يجمع ما بين السلطة والمقاومة.

٢ ـ خلال الحرب حصلت إسرائيل على تعويض عن الذخائر من مستودعات الجيش الأميركي وفق اتفاقية تجيز التعامل من جيش إلى جيش من دون المرور في القنوات السياسية. وعمد البيت الأبيض ووزارة الخارجية الأميركية إلى وقف هذا الإجراء المتبع في ضغط ضمني للحدّ من استخدام القوة المفرطة، والالتزام بالحد المسموح به من القوة، وهذه نقطة يجب الاهتمام بها ومتابعتها مستقبلاً. كما أن ملاحقة قادة الجيش الإسرائيلي عبر محكمة الجنايات الدولية أو المحاكم ذات الاختصاص الدولي، أو عبر اللجوء إلى آليات دولية أُخرى مثل مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، وحملات تقوم بها منظمات حقوق الإنسان ومنظمات المجتمع المدني لدى الرأي العام الغربي، قد تساهم في وضع بعض القيود على الاستخدام المجنون والمفرط للقوة ضد المدنيين.

٣ ـ تعوّل إسرائيل على عدم قدرة المقاومة على تعويض مخزونها من الصواريخ والأسلحة، وإعادة بناء ورش التصنيع التي دُمرت، والحصول على قطع الغيار اللازمة للتصنيع. ويدرك الإسرائيليون أن هذا الأمر لا يعتمد على قوة الردع الإسرائيلية، بقدر ما يعتمد على استمرار الحصار والرقابة المصرية. ولذا، ثمة تركيز إسرائيلي على محاولة إيجاد دور لها ضمن المحاور العربية.

٤ ـ فشلت إسرائيل في تقليص كمية الصواريخ التي تم إطلاقها، كما فشلت في توجيه ضربات حاسمة إلى قيادة المقاومة، أو تقويض البنية التحتية لمنظومة الأنفاق، الأمر الذي أوجد فجوة كبيرة بين توقعات الحرب ونتائجها لدى المجتمع الإسرائيلي. وسيكون لهذا الأمر تأثير بالغ في السياسة والاستراتيجيا الإسرائيليتين في المستقبل.

٥ ـ نجحت المقاومة في تقييد حركة ٥ ملايين إسرائيلي، وفي تهديد مفاعل ديمونا ومطار بن ـ غوريون، والوصول إلى المدن الكبرى، وإدامة المعركة ٥١ يوماً من دون أن تظهر عليها بوادر الضعف أو الانكسار.

٦ ـ تفوقت المقاومة على إسرائيل بما سمّاه البروفسور يحزقيل درور، عضو لجنة فينوغراد، "التفكير العسكري الإبداعي".

٧ ـ أنهت هذه المعركة كلياً نظرية الحرب الخاطفة التي كان يعتنقها الجيش الإسرائيلي، وأثبتت إمكان مواجهته أشهراً طويله، من طرف قوى أقل منه عدداً وعدة وتطوراً، ولم تعد الجبهة الداخلية الإسرائيلية خارج دائرة المعارك، أي أن هذه الجبهة، وفي أي معركة مقبلة، ستكون جزءاً أساسيا من المعركة.

٨ ـ فلسطينياً، يجب أن تكون الجولة المقبلة منسقة على أكثر من جبهة، وخصوصاً الجبهتين الشمالية والضفة الغربية. إن اشتعال هذه الجبهات في آن واحد، وفي حرب طويلة الأمد، من شأنه أن ينهك إسرائيل ويجعلها بأسرها تحت النيران الكثيفة. وفي ظل التطورات

التي تجتاح المنطقة وتجعله بأسره على رماد ساخن، فإنه يجب إعادة توجيه البوصلة في اتجاه العدو الصهيوني، الأمر الذي ربما يشكل أجواء أكثر ثورية وأكثر بعداً عن سياسات المحاور والتقسيم المذهبي والطائفي. وقد يساهم ذلك في انتشال المنطقة من أزمتها المستعصية. ■

المصادر

١ عاموس يادلين، "مباط عال"، العدد ٥٧١، ٩ / ٧ / ٢٠١٤.
٢ جاء ذلك في تصريح لنتنياهو نقلته صحيفة "يسرائيل هيوم"، في ٢٥ / ٧ / ٢٠١٤.
٣ تصريح لوزير الخارجية الإسرائيلية أفيغدور ليبرمان، نُشر في صحيفة "معاريف" في ١٣/ ٨ / ٢٠١٤.
٤ "معاريف"، ١٣ / ٨ / ٢٠١٤.
٥ المصدر نفسه
٦ وردت الأرقام في مقالة لعاموس هرئيل وغيلي كوهن، في صحيفة "هآرتس"، في ٢٠١٤/٨/١٥. وكذلك في الموقع الإلكتروني لـ "المرصد الأورومتوسطي لحقوق الإنسان"، في الرابط التالي:
http://euromid.org/ar/article/609/%D8%AD%D8%B5%D9%8A%D9%84%D8%A9-%D8%B4%D8%A7%D9%85%D9%84%D8%A9-%D9%84%D9%86%D8%AA%D8%A7%D8%A6%D8%AC-%D8%A7%D9%84%D9%87%D8%AC%D9%88%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D9%84%D9%8A-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D8%BA%D8%B2%D8%A9
٧ يوسي ميلمان، "البحث عن مخرج"، "معاريف"، ٢٤ / ٨ / ٢٠١٤.
٨ يوآف ليمور، "يسرائيل هيوم"، ١١ / ٧ / ٢٠١٤.
٩ المصدر نفسه.
١٠ "هآرتس"، ٧ / ٨ / ٢٠١٤.
١١ "يديعوت أحرونوت"، ٦ / ٨ / ٢٠١٤.
١٢ "معاريف"، ١٤ / ٨ / ٢٠١٤.
١٣ يادلين، مصدر سبق ذكره.
١٤ يوسي يهوشع، "أين الجرأة"، "معاريف"، ٢٤ / ٨ / ٢٠١٤.
١٥ هرئيل وكوهن، مصدر سبق ذكره.

١٦ المصدر نفسه. وانظر أيضاً: أهارون بريغمان، "هل سمعت ببروتوكول هنيبعل الإسرائيلي"، ٢٠ / ٨ / ٢٠١٤. وقد ترجمت صحيفة "الغد" الأردنية المقالة ونشرتها في ٣٠ / ٨ / ٢٠١٤، ويمكن الاطلاع عليها في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.alghad.com/articles/822480-%D9%87%D9%84-%D8%B3%D9%85%D8%B9%D8%AA-%D8%A8%D8%A8%D8%B1%D9%88%D8%AA%D9%88%D9%83%D9%88%D9%84-%D9%87%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A8%D8%A7%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D8%B1%D8%A7%D8%A6%D9%8A%D9%84%D9%8A%D8%9F

١٧ يهوشع، مصدر سبق ذكره.

١٨ وفق الباحث في مركز دراسات الأمن القومي الإسرائيلي غابي سيبوني. وللمزيد راجع الموقع العبري الإلكتروني "والاه"، ١٢ / ٧ / ٢٠١٤: http://www.walla.co.il

١٩ "يسرائيل هيوم"، ٢٤ / ٧ / ٢٠١٤.

٢٠ الموقع الإلكتروني لـ "المرصد الأورومتوسطي لحقوق الإنسان"، مصدر سبق ذكره.

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

السياسة الفلسطينية
وعملية سلام الشرق الأوسط

غسان الخطيب

٢٧٨ صفحة ١٠ دولارات

مقاومون داخل أحد الأنفاق

جنود إسرائيليون على مدخل نفق